

ميكانيزم النكوص

بقلم

كمال الربيع عبر الحميد نابل

مدرس الفلسفة بمدرسة المعلمية الثانوية

فصغيراً قد كنت أطلب لو كنت كبيراً ولى صفات الكبير
وكبيراً ، لو عدت طفلاً صغيراً واستردت نفسى نعيم الصغير
من قصيدة ليخاتيل لعميه بعنوان
« حبل النقي » فى ديوانه « همس الجفون »

قد يعاودنا الحنين إلى الطفولة إذا ما ثقلت وطأة الواقع علينا وتآزمت الأمور أمام ناظرينا ، فنأخذ فى تمجيد الطفولة وفى ترديد الأشعار التى غناها الشعراء فى مدح الطفولة ناسين أو متناسين المشاعر العنيفة البدائية الغالبة من غيرة مفرطة ونزعات عدوانية ترمى إلى البطش بأعز الناس إلى قلوبنا وخبرات أئمة وجدت مستقرها فى غياهب اللا شعور ، ناظرين فقط إلى بهجة الطفولة وروعها وخلوها من التبعات التى تضيق بها أنفسنا . فيرتد المرء — فى خياله — بعقارب الزمان إلى الوراء لعل الماضى يعينه على أن يتخفف من ثقل الحاضر الأليم الذى يشعره بالعجز والإخفاق . ويمكن أن نقول بوجه عام إن النكوص هو ارتداد المرء إلى مرحلة سابقة من مراحل نموه النفسى . فالنكوص لون من ألوان التوافق عن طريق الانزواء لأن الشخص لا يحاول فيه أن يحل مشاكله بطريقة مباشرة بل يرتد إلى نمط توافقى أقل مرتبة وتمشياً مع نموه النفسى . فحل المشكلة التوافقية عن طريق الانزواء إلى ميكانيزمات تكون أكثر صلة وموافقة لمستوى زمنى أقل يسمى نكوصاً .

وبلاحظ النكوص عادة في السنين الأولى عندما يحاول الطفل في الثانية أو الثالثة من عمره حل مشكلاته عن طريق الارتداد إلى العجز وعدم المسؤولية التي تتميز بهما الطفولة المبكرة . وهناك قصة تروى عن طفلة في الثانية من عمرها شعرت بأنها لم تعد تحظى بنفس العناية التي كانت تحظى بها بسبب ميلاد أخ جديد لها . وحدث ذات يوم أن وقعت على الأرض ولم تحاول أن تنهض قائلة بلهجة يشوبها الصياح « لا أستطيع النهوض » إلى ما زلت صغيرة . ومن الواضح أن الطفلة بسلوكها هذا المسلك إنما كانت تنشد نفس العناية القديمة التي حرمت من جزء منها بسبب قدوم منافس جديد لها في العائلة .

وما سبق يمكننا القول إن النكوص يفيد عادة التراجع أو الارتداد إلى طرق للتفكير والعمل والشعور تنتمي إلى مرحلة من مراحل الطفولة ، ولكن النكوص يدل من الوجهة الفنية على معنيين متميزين : يفيد المعنى الأول رجوع المرء إلى نموذج السلوك الذي كان يسلكه في مرحلة مبكرة . ولقد أطلق كل من باركر ودمبو على هذا النوع من النكوص لفظ Retrogression كارتداد الطفل إلى استعمال اللهجة التي كان يستعملها في مرحلة سابقة أو نتجائه إلى اللغة في حديثه . ولعل المثال الآتي يزيد الأمر وضوحاً : مثال الطفل الذي يحس اقتراب ميلاد طفل جديد أو ولادته بالفعل فيقبل على نفسه أو يلجأ في كلامه إلى التهمة الخ ؛ والمعنى الثاني للنكوص لا يتضمن ضرورة الرجوع إلى نفس النماذج التي كان يلجأ إليها الشخص نفسه . ويسمى باركر ودمبو ولفن هذا النوع من النكوص بالنكوص الأصيل Retrogression proper . ومن الواضح أن المعنى الثاني للنكوص يتضمن المعنى الأول . ويفيد المعنى الثاني توقف الإعلاء Sublimation أو إعاقته في سبيل الارتداد إلى أشكال من السلوك أكثر أولية وإلى ضروب من الإفصاح أكثر بدائية . وبوجه الإجمال يشير هذا المعنى إلى كل سلوك غير ناضج أو غير مكتمل . فسلوك البسالف الذي يطرح الطرق المقبولة من الوجهة الاجتماعية للتعبير عن الغضب أو العدوان كالاحتقار أو الزرابة ويلجأ إلى طرق أكثر بدائية كأن يضرب من سبب له الغضب بقبضة يده إنما يوضح هذا المعنى تمام التوضيح . ولكن مكدوجل يرى قصر مفهوم النكوص على الرجوع إلى المظاهر الطفلية البارزة في الفعل ويقول « إن البيئة على وجود النكوص والطابع الجوهري الذي يميزه هو إحياء طرق الفعل ذات الصبغة الطفلية من جديد

التي خلفتها منذ مدة طويلة الطرق الموافقة للشخص للبالغ^(١) » ويرتب على هذه النظرة إخراج الأحلام وطرق التعبير الخيالية من ميدان النكوص وعزوها إلى عدم انتظام التفكير وتفاوته من حيث الوضوح والغموض . وعلى هذا النحو يضيف مكيدوجل من معنى اللفظ على خلاف جمهرة علماء النفس الذين يرون النكوص ظاهراً في كثير من المظاهر والعمليات النفسية كالأحلام وضروب التعبير الخيالية . فمن الممكن أن يتم النكوص عن طريق السلوك أو الخيال أو الذاكرة وعند ما يتم النكوص عن طريق السلوك فإننا ننظر إلى السلوك كعرض Symptom ذلك لأنه يتسم بالغراية وعدم الموافقة بالنسبة للموقف الذي يهدد الفرد . فهذا الطفل الذي يتبول على نفسه ليلاً لا يفعل شيئاً لمواجهة المشكلة التي تواجهه بل يجعل المشكلة صعبة بالنسبة لأفراد عائلته . ومن المعروف أن البوال ما هو إلا ارتداد إلى مرحلة عدم المسؤولية في ضبط المصرة التي يتميز بها سلوك الطفل الصغير . ومص الأصابع مثل معروف للسلوك الارتدادى . ومع ذلك فإن من الممكن أن يتم النكوص عن طريق الخيال كما هو الأمر عندما يترك الإنسان لأفكاره العنان لتجتر الماضى وذكرياته خاصة الذكريات الجميلة للطفولة . ويتفاوت النكوص في اكتماله ودقته . فمن ناحية نلاحظ أشكالاً عرضية من أشكال النكوص تتمثل في ألوان من السلوك شبيهة بسلوك الأطفال عند كل إنسان . فكل شخص يود أن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء إذا ما برم بحبائمه ومسئوليائهما كما تبدو في أحلامنا عناصر طفلية كثيرة . وكثير من الأفعال العرضية التي تبدو على أنها عديمة الصلة بالشخصية كاللزمات ما هي إلا استمرار للترعات الطفلية . وكثير من مظاهر السلوك الشاذة ما هو إلا أسلوب طفلى في طبيعته . ومن جهة أخرى ، نلاحظ الأشكال المتطرفة للسلوك عندما يشمل النكوص الشخصية بأكملها . وفي مثل هذه الحالة يتخذ المريض اتجاهها طفلياً بما يتميز به من عدم الشعور بالمسؤولية والغراية ، كما يتفاوت النكوص كذلك في كميته ودرجته وهناك اعتقاد بأن النكوص يصل إلى درجة متطرفة من العنف كلما كان الارتداد إلى مراحل الطفولة المبكرة أكثر ظهوراً وكلما ازداد الانفصال بين المرء والحالة الراهنة . فالشخص الذى تتميز عنده « الذات العليا » بالواقعية وتكون متسقة مع مجاهدات « الأنا » لا يكون عرضة للنكوص بأشكاله الواضحة الخطيرة

بينما الشخص الذى تسيطر عليه وتقوده فى حياته . « ذات عليا » غلبة ملححة تقوم على قدر كبير من الأفكار الخيالية يكون عرضة لضروب عميقة من النكوص حينما تهدده حالة معوقة . وظاهر من ذلك أن النكوص لا يقتصر على مجرد إحياء الطرق الطفلية القديمة للفعل بل إنه يتناول كثيراً من أنواع السلوك . ويعزو فرويد إلى النكوص دوراً هاماً فى نشأة الأعراض العصابية . فالليبدو — أو الطاقة الجنسية — عند كتبها أثناء الصراع تميل إلى العودة والظهور من جديد متخذة أشكالاً طفلية فى التعبير والإفصاح عن نفسها . ويعزو يونج كذلك كثيراً من الأهمية إلى النكوص « فعن طريق مفهوم النكوص انتهى التحليل النفسى إلى كشف من أعظم كشوفه أهمية فى هذا المجال » وإن « تأثير النكوص لينبغ من العظمة والأهمية والتأثير حداً يجعلنا ميالين إلى أن نعزو إلى هذا الميكانيزم وحده الأثر فى إحداث الحوادث النفسية العارضة » . ولكن نظرة يونج تختلف عن نظرة فرويد . فنلاحظ أولاً أن يونج ينظر إلى الليبدو نظرة أوسع من تلك التى ينظر بها فرويد . فلقد قصر فرويد الليبدو على الطاقة الجنسية فى حين أن يونج قد جعله شاملاً لكل ضروب النشاط النفسى سواء كان جنسياً أم غير جنسى . ونلاحظ ثانياً أن يونج لا ينسب أهمية كبيرة إلى المظاهر الجنسية الطفلية ! وإن شئنا الدقة لقلنا إن يونج أنكرها تمام الإنكار . فمن المعروف أن فرويد يرى فى نشاط الرضيع أو الطفل الصغير قبل الخامسة أو السادسة مظاهر جنسية تتلوها فترة كمن ! وأن التربية ترمى وعمل على قمع وكبت هذه النزعات الجنسية وتمهد السبيل فى السنة الخامسة أو السادسة لفترة الكون التى تستمر إلى البلوغ ! وفى فترة الكون تبقى الغريزة الجنسية دون تعبير صريح . ويقول يونج عن نظرية الجنسية الطفلية وفترة الكون التى تعقبها إن « عملية النمو على هذا النحو تبدو من الوجهة البيولوجية مدعاة للغرابة . وهذا الافتراض المستحيل ما هو إلى نتيجة للحكم الذى يقول بأن أنواع النشاط الطفلى للمرحلة السابقة على المرحلة الجنسية ما هى إلا مظاهر للتعبير الجنسي ! وأن ضروب الإفصاح التى تشبه جلد عميرة إنما هى عمليات — فى جوهرها — جلد عميرة . وعلى هذا النحو كان على فرويد أن يؤكد القول باختفاء الإفصاح الجنسي — أو على حد تعبيره — « فترة الكون » . وما يسميه اختفاء لمظاهر الإفصاح الجنسي ليس فى حقيقة الأمر إلا البداية الحقيقية للجنسية ! وكل

ما سبقها ليس إلا مرحلة سابقة لا يمكن أن نعزو إليها أية صفة جنسية حقيقية . وعلى هذا النحو نرى الظاهرة التي عز تفسيرها على فرويد - أي مرحلة الكمون - قد فسرت ببساطة . وظاهرة فترة الكمون الجنسية ما هي إلا شاهد واضح على عدم صحة مفهومات الجنسية الطفولية المبكرة^(١) . وعلى الرغم من نبذ يونج لفكرة الجنسية الطفولية المبكرة فإنه يعتقد - كما اعتقد فرويد من قبل - بعقدة أوديبوس وكل ما هنالك من اختلاف بينهما في هذا الصدد أن فرويد يرجع تكون هذه العقدة إلى النشاط الجنسي الحادث بالفعل في فترة الطفولة والكبت الذي يعقبه بينما يرى يونج أن عقدة أوديبوس ناجمة عن اللاشعور الجمعي الموروث ؛ والقدر الذي تتخذه هذه العقدة من حيث الطابع الجنسي لا يتحقق إلا عندما تنضج الغريزة وتصبح نشيطة في فترة الطفولة المتأخرة Later childhood . فهذه العقدة موروثه من ضمن التراث الذي يتضمن اللاشعور الجمعي الذي يشمل تراث الجنس بأكمله . فالنكوص - فيما يرى يونج - ليس كله تحديداً لنشاط المركبات الجنسية التي تكونت إبان فترة الطفولة المبكرة . ويؤكد يونج من قيمة « الحاضر » في نشأة السلوك المنحرف الذي قد يفضى إلى النكوص في حين أن فرويد يؤكد من قيمة الماضي أكثر مما يؤكد من قيمة الحاضر في نشأة الانحراف النفسي والشلوذ .

وبرى مكدوجال أن الدكتور موريس نيكول Maurice Nicoll قد ألخص مذهب يونج في النكوص تلخيصاً رائعاً . وهالك ما كتبه الدكتور موريس في تلخيصه لمذهب يونج : « النكوص فعل نفسي ويفيد - بمعناه العام - ابتعاد المرء عن طرق التكيف مع الحياة إلى حالة الطمأنينة التي يشعر فيها الطفل بين ذراعي أمه قبل أن يكتشف بعد مسئوليات الحياة ؛ وبدلاً من أن يقابل المرء العقبات الحديثة التي تصادفه في الحياة عن طريق الأداء والعمل نرى العصافي يكون أعراضاً مرضية جديدة . فالخطوة الأمامية التي تصاحب التغلب على الأعمال الجديدة مفقودة ويقوم بدلاً منها شيء يبدو في الظاهر على أنه مجرد خلق متزايد للحواجز « للعقبات » . فينضاف الدوار إلى القلق ويظهر الصداع والغثيان واضطراب القلب والتأمل هذا إلى طائفة أخرى من صور عدم القدرة . وعلى هذا

النحو يضحى دوماً بالمستقبل على حساب معاناة أكبر ، فالخطوة الأمامية التقدمية للحياة قد أوقفت .

ويبدو المرضى غير قادرين على أن يتخلوا عن أعراضهم المرضية ، وفي بعض الأحيان يتمسك المرضى بها بعناد على الرغم من أنهم يصرحون برغبتهم في أن يشقوا منها . ويبدو أن هناك شيئاً أقوى منهم يجذبهم إليه ويمسك بهم في قبضة العصاب . ويبدو أن المجرى النفسى قد وجد له هدفاً مغايراً تمام المغايرة للهدف الذى يجاهد فى سبيل تحقيقه الشخصى السوى . وهناك ثلاث طرق للتخلص من حالة غير محتملة (عدا الحرب الذى يتخذ شكلاً فيزيقياً) : التغلب على الموقف بمجهود ينحو إلى التقدم مصحوب بمعاناة عادية يستلزمها الموقف ، والتغلب الوقى أو العرضى على الموقف غير المحتمل عن طريق كبت بعض الانفعالات التى يستثيرها الموقف وما يحدث فى هذه الحالة ليس هو بالتوافق الصحيح وإنما هو أشبه ما يكون بالتوافق الناقص لأن الكبت تكمن من ورائه الأعراض العصابية هذا إذا ما فرضنا نجاح عملية الكبت ، وحينما يكون الكبت متطرفاً يصل الأمر إلى النكوص . وفى هذه الحالة تستبدل المعاناة المرضية بالمعاناة السوية . وهذا الأسلوب إنما هو نقيض التكيف عن طريق التقدم لأن الحركة النفسية متروية أو متجهة إلى الداخل بعيدة عن مستوى الشعور بالواقع متجهة نحو مستوى خيالى . وقد تكون هذه الحركة متدرجة أو مفاجئة ، ولقد تتخذ اتجاهاً متطرفاً إلى حد أن يصبح المريض أعمى ، أبكم ، ومصاباً بالشلل فى أطرافه أو يكون طفلاً من الوجهة النفسية أو الأمرين معاً .

ويمكن النظر إلى النكوص على أنه ميكانيزم بمعنى أنه أسلوب يتخذه المرء لتجنب مواجهة أو حل المشكلات الصعبة التى تهدده وتشعره بالخيبة أو الإخفاق . فالنكوص هرب من الواقع . ويرتبط النكوص بالثبيت Fixation من ناحية أخرى لعلاقته بمراحل النمو . فالنكوص خطوة إلى الوراء وارتداد إلى مرحلة من مراحل النمو السابقة وعود إلى الطرق القديمة للتفكير والشعور والسلوك التى ظهر نفعها فى الماضى ويحاولها المرء من جديد علّه يجد فيها بطريقة سحرية حلاً لمشكلاته التى تهدده . ويرى شافر فى كتابه « سيكولوجية التوافق » عدم وجود نموذج معين للسلوك يمكن أن نطلق عليه « النكوص » كما يعتقد أن النكوص ليس بالميكانيزم بالمعنى الكامل الذى يفيد هذا اللفظ وكل ما فى الأمر أنه خاصية

لأشكال عديدة من السلوك غير المتوافق . ولكن الكاتب يرى أن النكوص ميكانيزم حقيقي . ويمكن الرد على شافر في حجته التي تقول بأن النكوص خاصية لأشكال عديدة من السلوك غير المتوافق، بقولنا إنه من الصعب على الباحث أن يجد حالة نفسية يتفرد بالعمل فيها ميكانيزم واحد ، وإن الميكانيزمات النفسية تكاد أن تكون متداخلة متشابكة ويظهر هذا بوضوح في عالم الأحلام . أما عن النموذج المعين المحدد للنكوص فهذا ما يظهر بوضوح وقوة في ملاحظة كل من Koch و Dieterle لمريضتين بالمسنريا . فلقد ارتدت هاتان المريضتان في حالة الذهان التي أصابتهما إلى درجة اتخاذ نماذج^(١) طفلية واضحة لا تخطئها العين كالصراخ والرضاعة من زجاجة .

لقد فرغنا الآن من تعريف النكوص . وذكر آراء بعض العلماء البارزين فيما يختص بموضوع بحثنا . وسنأخذ الآن في ذكر أهم الدوافع التي تدفع المرء إلى النكوص . يرى ويلز Wells^(٢) أن النكوص يرجع إلى إخفاق الطاقة في مجاراتها وتمشيها مع مطالب الموقف الراهن . وهو يشبه الحالة المعوقة التي تنفضى إلى النكوص بالحمل load بالمعنى الذي يستخدم به هذا اللفظ في علم الطبيعة . وبواضح أنه في حالة ما يفوق الحمل أو الصعوبة الطاقة المستخدمة يتكون الميل إلى التقهقر أو الارتداد إلى نوع من التوافق يتطلب نشاطاً أقل . فقد تلجأ الزوجة التي تجد صعوبة فائقة في الوقوف أمام زوجها الشرس إلى حيل وطرق كانت تتخذها إبان طفولتها تجاه والديها . وهذه النظرة على الرغم مما ينقصها من السند التجريبي أو الإكلينيكي — يمكن أن يكون لها بعض القيمة كفرض يعيننا على تحديد أى الحالات يكون فيها النكوص وسيلة من وسائل التوافق .

وقد يتخذ النكوص صورة الارتداد إلى أنواع من السلوك ذات طبيعة واضحة معينة أو التغير في نوع أو كيف السلوك أو الشخصية على نحو يكون أكثر بدائية وأقل تنظيماً . ولقد وضع بطريقة بارزة كل من باركر Barker ودمبو Dembo التغيرات التي يتخذها السلوك أثناء عملية النمو . وهذا التحليل يمكن أن ينطبق على النكوص فيما يرى سيموندز parcival Symonds في كتابه « Dynamics of Human

(١) Dieterle & Koch, "Experimental induction of infantile behavior in major Hysteria" in "Journal of nervous & mental Diseases," 86 (1937), 688-710.

(٢) Wells: "Social Maladjustments; Adaptive Regression." in Carl Murchison, editor, Handbook of Social Psychology, ch. XVIII' 845 915.

Adjustment « فمن المعروف أن تطور السلوك يصاحبه تغير في كيفة ونوعه . فالطفل الصغير يعتمد على والديه في قضاء حاجاته وتحقيق أهدافه ، وكلما امتد به العمر كان أقل اعتماداً على الغير وأكثر قدرة على تصريف أموره بنفسه . كذلك يختلف السلوك في تنظيمه Organisation ، فللشخص الناضج أهدافه وأغراضه ، ونقل الأهداف وتتضائل في مستواها في النكوص . ويشير النمو إلى تنظيم متسلسل على خطوات تصل أقصى مداها في السلوك المكتمل الناضج . فيلجأ الشخص إلى تحقيق أهداف فرعية ترمى إلى خدمة وتحقيق الهدف السامى الذى ينتغيه كما قد يلجأ إلى القيام طوعية بأعمال تقل فيها درجة التشويق والاهتمام وتكاد أن تكون خالية من المعنى في سبيل الهدف الأكبر الذى يسعى جاهداً في تحقيقه ؛ أما في النكوص فيرتد المرء ويتراجع ويحاول أن يحقق الأهداف الأساسية بطريقة مباشرة أى لا يطبق الصبر على اتخاذ الخطوات اللازمة وإنما يتعجل الأمور على نحو شاذ لا يليق بشخص ناضج لأن النضوج يتضمن أيضاً نوعاً من التنظيم المعقد . وفي النضج Maturity اتساع المجال لضروب من النشاط والاهتمام : فكلما نما الطفل اتسع مجال اهتمامه فيصبح قادراً على تنويع مجالات اهتمامه ؛ وإذا ما أعيق فقد يصرف النظر عن بعض ما يهمه ويوجه نشاطه في سبيل التغلب على بعض العقبات التى تحول دون تحقيق أهدافه ودوافعه الأساسية ، ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط بل يعد العدة لرسم الخطوط العامة لتحقيق أهدافه المستقبلية . فلديه القدرة إذا ما شب وكبر على التنبؤ بالصورة التى يكون عليها - مستقبلة واتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف . وبالإجمال يمتاز الشخص الناضج ببعد النظرة . ويكون الأمر على خلاف ذلك في النكوص ، فيراجع الشخص لا يستعد لمواجهة المشكلة ولكن ليحقق أهدافاً أكثر قرباً ومباشرة . وكلما كثر حظ المرء من النضج اتسم سلوكه بالتفاضل والتخصص فيعنى بالتفاصيل الدقيقة اللطيفة . ويكون الأمر على العكس من ذلك في النكوص فالعناية بالتفاصيل تكاد أن تكون معدومة ويستجيب المرء للموقف كله ويكون النشاط أقل تفاضلاً وتميزاً . وأخيراً فالنضج يتضمن درجة عالية من الواقعية ولا يتحقق هذا الشرط في النكوص .

ولقد ميز باركر ودمبو ولفن بين نكوص الموضوع Object Regression ونكوص الحاضر Dave Regression . ويفيد نكوص الموضوع الارتداد إلى

موضوع ما سبق أن استجاب له المرء في الماضي كلعب الطفل باللعب التي كان يلعب بها في مرحلة زمنية أقل مما هو الآن . فهذه الفتاة الراشدة التي عانت الحيرة في علاقتها الغرامية برفيقها قد ترد - ولو لمدة قليلة - إلى دميئها عليها تجد فيها وسيلة للسلوى والعزاء . ويشير نكوص الحافز إلى نوع وكيف السلوك كما يظهر في استمرار لعب الطفل بنفس اللعبة التي يلعب بها . ولكن التغير الذي يصيب الموقف إنما هو التغير في طريقة اللعب كأن يرميها بعنف أو يأخذ في تهشيمها بدلا من أن يلعب بها على نحو نافع .

وقد يحدث النكوص نتيجة للصراع النفسي الذي يعانيه المرء . وتكون ضروب التعويق والحرمان الداخلي أكثر قوة من أنواع التعويق والحرمان الناتجة عن مؤثرات خارجية . فقد يشعر المرء أن مستوياته الخلقية لا تسمح له بالإفصاح عما يعانيه من دوافع عنيفة ومشاعر قوية غالبة . فهذا التلميذ الذي يجد نفسه مدفوعاً بمشاعر عدوانية تجاه مدرسه ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع الإفصاح عنها نتيجة لطرق الكف التي امتصها من المجتمع الذي يعيش بين جدرانته قد يعالج هذا الصراع عن طريق رد الفعل Reaction Formation - أي عن طريق الإفصاح عن عكس النزعة التي يضمهرها - فيكون تلميذاً طيعاً مؤدباً أو يعالجها عن طريق تقمصه لقوة مدرسه وشخصيته فيأخذ في الاعتداء على من هم أصغر منه . ويظهر النكوص بشكل واضح في سلوك هؤلاء الأشخاص الكبار الذين يعيشون بعقولهم في الماضي فهم يقدسون الماضي ويأخذون في تلمس الأخطاء في التطور الحاضر . وأكثر الأشخاص قابلية واستعداداً للنكوص هم الأشخاص الذين تسيطر عليهم « الذات العليا » بشكل غلاب قاهر مع ضعف ظاهر في « الذات » . فتضع « الذات العليا » التزامات عنيفة كما تلجأ إلى ضروب قاطعة من المنع والتحریم مما يترتب عليه لجوء المرء إلى النكوص والارتداد إلى مرحلة سابقة من مراحل النمو .

ويدفع « فقدان الطمأنينة » إلى النكوص . ويلاحظ في الأطفال الذين حرموا من حنان أمهاتهم إما لموتن أو لسبب آخر اتجاهات عدائية عنادية أو اتجاهات نكوصية ارتدادية ، أو الاتجاهان معاً . ويحق للمرء أن يتساءل لماذا يلجأ بعض الأشخاص إلى النكوص كوسيلة للخلاص من مشكلة صعبة بينما يلجأ البعض الآخر إلى التعويض أو الإعلاء ؟ ولقد قيل إن الإنسان مقيد في

اتخاذ طرق جديدة للتوافق بتأثير قوة وتأصل الطرق القديمة للتوافق . وبعبارة أخرى إذا ما حدث أثناء عملية النمو « تثبيت » Fixation فيكون من السهل على المرء أن يرتد إلى هذه المراحل المبكرة التي اعتبرها « التثبيت » فتكون بمثابة نقط للوقوف يرتد إليها المرء إذا ما تأزمت الأمور ولم يستطع لها حلاً . والتشبيه الذي استخدمه فرويد هو هجوم جيش على منطقة من مناطق العدو . ومن البديوى أن يكون لهذا الجيش قواعد أساسية رئيسية وفرق هجومية للغزو . فإذا ما أجبرت فرق الهجوم على الارتداد فإنها تتقهقر إلى القواعد الرئيسية الممتدة على طول ميدان القتال . وكلما كان التثبيت قوياً في أية مرحلة من مراحل النمو كان من السهل على المرء أن يرتد إليها . « وطبيعة النكوص » إنما هي العلاقة التي تكشف عن عملية النمو نفسها بالنسبة لهذا الفرد .

ولكى يكون النكوص واضحاً في ذهن القارئ لا بد لنا من ذكر الأشكال التي يتخذها النكوص . وأول هذه الإشكال هو النوم . والنوم ظاهرة عادية مألوفة ولكنها تصبح شاذة إذا ما طالّت المدة التي ينامها المرء عن المألوف . ويدل النوم غير العادى على رغبة المرء في الفرار من مشكلاته التي لا يجد لها حلاً . ولقد صرح لى أحد أصدقائى بأنه ينام كثيراً إذا ما أعوزته الوسائل لحل مشكلة اعترضته أو عقبة صادفته . ولقد لاحظ الكاتب على سيدة شابة فشلت في حياتها الزوجية التي لم تدم أكثر من شهرين طول ملازمتها للفراش وعدم مغادرتها للفراش إلا في حالات الضرورة القصوى . فلما استوضحها السبب في ذلك قالت « إن النوم راحة وفيه بعد عن العالم ومضايقة الناس » . وواضح أن هذه العبارة تكشف عن سوء التوافق . ويلاحظ المدرسون أن معظم حالات النوم في حجرة الدراسة لا ترجع إلى مجرد التعب بل ترجع إلى فقدان الاهتمام بما يقوله المدرس . وفي النوم يوجد الارتداد أو النكوص إلى الوضع الجنينى . Embryonal state .

وبلى ذلك النكوص إلى المرحلة القمية . ويلاحظ في هذا اللون من ألوان النكوص الميل إلى الشره كما يبدو الارتداد إلى المرحلة القمية واضحاً في مص الأصابع والأشكال المختلفة للممارسة الشبقية الذاتية . وفي مرحلة تالية نرى ارتداداً أو نكوصاً إلى المرحلة الاستية Anal Stage التي تظهر بفقدان عادة التبول والتبرز . فالبول ما هو إلا مثل توضيحي من الطراز

الأول للنكوص . ويمكن أن نرجع ظهور البوال عند طفل من الأطفال - في حالات كثيرة - إلى ظهور طفل جديد في العائلة أو قرب ميلاده . فالبوال وسيلة - غالباً ما تكون لاشعورية - تهدف إلى جعل الطفل يحظى بنفس العناية التي توجه إلى الطفل الجديد لأن الطفل الجديد عندما يتبول على نفسه إنما يظهر عجزه وحاجته إلى من يهتم به مثله في ذلك مثل الطفل الجديد . وقد يكون البوال طريقة للتعبير عن المنافسة والغيرة . ولقد سمع الكاتب من أخصائي نفساني قصة ولد صغير يبلغ من العمر اثني عشر عاماً لجأ إلى البوال كوسيلة يجذب بها انتباه أمه ويعلن عن طريقها غيرته من زوج أمه الذي كان لا يرغب في وجوده . ويستطيع الباحث أن يجد أمثلة للارتداد إلى المرحلة الإسيية في الميل إلى التلوث وعدم النظام سواء بالنسبة للشخص نفسه أو بالنسبة إلى الأشياء التي تخصه والميل إلى الحصر Constipation والاهتمام بالمبالغ فيه بعملية التبول والتبرز .

ويمكن أن نذكر كذلك جميع أشكال العجز أو الرغبة في الحماية وجذب الانتباه التي يرمى المرء من ورائها إلى أن يعامل كالطفل الصغير على أنها شكل من الاشكال التي يتخذها النكوص . فالشخص الذي يلجأ إلى البكاء المر والصراخ عند الخيبة والكلام بصوت عال وإظهار سروره وطربه بطرق مبالغ فيها وإلى إحداث « الزبطة » دون مبرر ، ويحب دائماً أن يرجوه الغير في إنجاز عمل من الأعمال إنما يلجأ إلى وسائل وطرق ارتدادية لجذب انتباه الغير . وهذا المريض الذي يستمتع بمرضه ويود أن يطيل أمده إنما يكشف عن نزعة ارتدادية . وتفسير ذلك في غاية البساطة : المريض شخص عاجز في حاجة إلى العناية كما أن المرض عذو مشهور نتعل به لكي نغني النفس من القيام بكثير من الأعمال البغيضة إلى النفس .

ويرى سيمونلنز^(١) إمكانية تفسير أشكال التقمص المتطرفة Identification عن طريق النكوص . فيمكن أن يذهب المرء إلى القول بأن ضروب التقمص المتطرفة تشبه في ظاهرها أنواع التقمص التي يتخذها الأطفال الصغار ومن ثم تكون نكوصية أو ارتدادية . فمن المعروف أن الأطفال يتأثرون تأثراً كبيراً بمن يتخذونه بطلاً ويحاولون تقليده ما وسعهم ذلك . ولعل الدافع إلى ذلك شعور

الأطفال بنقصهم ورغبتهم في أن يكونوا أقوياء . والأمر كذلك بالنسبة إلى البالغ الذى يود أن يكون شخصاً آخر غير ما هو بالفعل . فمثل هذا الشخص يتخذ نماذج سلوكية هي في جوهرها نماذج طفلية . ولقد ذهب البعض في تفسير حب الجمهور للمغنين الذين يشوب صوتهم لهجة صيبانية إلى أن هؤلاء المغنين إنما يتيحون للجمهور الفرصة للاستمتاع بالنكوص عن طريق التقمص .

ويبدو النكوص واضحاً كذلك في الرجسية أو عشق الذات . ففي فترة من فترات الطفولة المبكرة يبدأ الطفل في اكتشاف نفسه ، ويجد في نفسه موضوعاً أكثر إشباعاً للذة من أى موضوع آخر . فيشعر بالبهجة أثناء استحمامه ، وفي جريانه عارياً ، وفي عدوه وقفزه وفي لبسه ملابس غريبة . ولا يحقق الأطفال اللذة في أجسامهم فحسب ولكنهم يبدأون أيضاً في الاهتمام بأنفسهم كأفراد ، وهذا الاهتمام تعشقى . وهذه هي المرحلة الرجسية - أو مرحلة الحب الموجه نحو الذات - التي يكون فيها الطفل معنياً بنفسه مشغولاً بجسمه ومظهره لا يعنى بالعالم الخارجى قدر عنايته بنفسه . وبناء على ذلك يمكننا القول بأن البالغ الذى يجد في نفسه موضوعاً للاهتمام بدرجة مبالغ فيها إنما يتسم سلوكه بطابع الطفولة . فالمرأة التي تنفق ساعات طوالاً في الترتين أمام المرأة آخذة في محاولة وتجريب كل وضع ممكن للقبعة على رأسها يجعلها أكثر جاذبية وافتناناً إنما تعمل وتسلك بطريقة تشبه سلوك الأطفال على نحو ما .

ويظهر النكوص بارزاً في العدوان . ومن المعروف أن العدوان استعداد أولى موروث اضطر المرء إلى تعديل المظاهر التي يتخذها ليتفق سلوكه مع المتقتضيات الاجتماعية . وعندما يزول القناع عن هذه التزعة البدائية نرى بوضوح ظواهر المظاهر الارتدادية . ولنبداً بالطفل . فالطفل الصغير كائن هدام . فتراه يمزق صفحات الكتب ، ويكتب على الحائط ويسكب الحبر على السجاد إلى آخر هذه المظاهر التي تكشف عن ميله إلى الهدم . والأمر كذلك بالنسبة للبالغ الذى يصب نغمته على الأشياء إذا ما عاقه عائق : فالطالب الذى يمزق ورقة الإجابة في حالة إخفاقه إنما يكشف سلوكه عن هذا الميل العدوانى . وهناك طرق صيبانية للعدوان يتجلى فيها النكوص والارتداد إلى مستوى طفلى مثل « كذبة أبريل » خاصة عندما تتخذ شكلاً متطرفاً . واتجاه الشكوى والتبرم وتلمس الأخطاء الذى يتخذه بعض البالغين إنما يشبه عادات الأطفال الذين يسيطر

عليهم آباء يحاولون دون تحقيق رغباتهم باستمرار . فبدلاً من أن يتخذ السلوك شكلاً عدوانياً صريحاً تراهم يلجأون إلى الصراخ والشكوى . ويمكن أن يجد المرء نماذج شبيهة بهذا السلوك في حياة الأفراد الذين جانبهم التوفيق في حياتهم . وتسير مشاعر الغضب والكراهية في نفس الاتجاه مع السلوك العدواني . وعندما تسفر هذه المشاعر عن نفسها في شكلها البدائي فإننا نكون بصدد نكوص أو ارتداد إلى أنواع الإفصاح التي يتميز بها السلوك الطفلي . وقد يفصح المرء عن غضبه بهذه الطريقة البدائية عن طريق المشاكسة العنيفة أو بضرب الأرض بقدميه . . . الخ . وعندما لا يجد الغضب الفرصة للتعبير الصريح فإنه يتخذ أشكالا بديلة كالتهمج . . . ويتفصح سلوك الشخص الغاضب عن استعدادات ارتدادية أو نكوصية نتيجة للإعاقة .

ويتفصح النكوص كذلك في الخلفة Negativism . وتظهر هذه النزعة عند الأطفال في الثانية أو الثالثة من عمرهم عندما يتعلمون عبارة « لن أعمل » فيأخذون في مقاومة أى إنحاء يصدر إليهم من الكبار . ويكون الأمر كذلك بالنسبة للبالغ الذي يصير على اتخاذ الطريق الذي يحلو له وعلى أن يتخلص من القيود التي يفرضها عليه المجتمع . وتبدو الخلفة في صور متعددة : فالشخص لا يود المساهمة في عمل من الأعمال إلا إذا أسندت إليه الرياسة ، ويتلمس جاهداً الفرصة للتعبير عن هذه النزعة التي تعتلج في أعماقه - ويجب بعض الأشخاص أن يعملوا العمل لا عن رغبة في العمل ولكن الغير رفضوا أن يعملوه ويمتنعون عن العمل إذا ما وضح لهم أن الغير يود أن يعمل . كل هاتيك المظاهر إنما تكشف عن ارتداد السلوك إلى مرحلة طفلية أو صبيانية ؛ وإذا ما تكشف عنها سلوك البالغ كان هذا علامة على ارتداده إلى سلوك طفل يبلغ من العمر الثانية أو الثالثة .

وبما سبق يمكننا القول بأن النكوص طريقة شاذة من طرق التوافق لأن النكوص يفيد انعدام التكيف ما دام النكوص هو الارتداد إلى مرحلة من مراحل الطفولة واتخاذ أساليبها وطرقها في التعامل مع الواقع . فالمرء يستجيب لما يتهدده ويقف عقبة في سبيل تحقيق أغراضه بالارتداد إلى مرحلة سابقة وانهاج أسلوب طفلي يتميز بالتواكل والاعتماد على الغير . فهو أسلوب عاجز لا تحل فيه المشكلات بطريقة مباشرة بل بطريقة ملتوية تسلب الإنسان فاعليته وقدرته وترتد به إلى درجة

من العجز لا تتفق مع ما يجب أن يكون المرء عليه من قدرة على حل المشكلات التي تعترضه . ولعل أهم خاصية للتوافق هي القدرة على حل المشكلات والاستفادة من الخبرات السابقة في حل المشكلات الحاضرة . فالتكيف عملية ترمي إلى السيطرة على المواقف عن طريق الاستفادة من الخبرات السابقة . والتكيف يتضمن معنى الجدة والتطور ما دامت كل مشكلة تعرض لنا تتضمن عنصراً جديداً تضاف إلى خبرة الفرد وتستغل في مواقف جديدة . ومع الأسف فإن كثيراً من الآباء والأمهات يمهّدون الطريق للنكوص بحديثهم وعنايتهم المفرطة على أولادهم في فترة الطفولة . والحنين إلى الوطن الذي يشعر به كثير من الطلبة الغريباء أثناء تلقيهم العلم ما هو إلا عرض من أعراض سوء التوافق . فهذا الطالب الذي يتفصح سلوكه عن نزعة ارتدادية ما هو إلا طالب قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلته واعتمد عليهم كل الاعتماد في تدبير شئونه والبت في أموره الأمر الذي يترتب عليه حرمانه من تقرير أموره وعدم قدرته على حل مشاكله . فإذا ما تغير الجو وأصبح بعيداً عن يقررون له الأمر ويعملون على إرضائه إذا ما تأزمت الأمور ظهرت عليه أعراض سوء التوافق وارتد على عقبيه إلى أسلوب سابق من أساليب التوافق ليحظى بنفس العناية التي كان يحظى بها أثناء وجوده بين عائلته . وإذا لم يصحح سلوكه عن طريق النصح وتبيان الأمور له على حقيقتها فقد يشكو من توتر انفعالي ملح أو يعاني القلق الذي قد يتخذ أعراضاً فيزيقية مثل سوء الهضم أو الصداع . فإذا ما أفلح في إقناع نفسه وإقناع الغير أن هذه الأعراض أعراض مرضية فيكون النكوص قد حقق هدفه ووصل إلى غايته ألا وهي الرجوع إلى موطنه حيث يشعر بنفس العناية التي كان يحظى بها . ويتم هذا الأسلوب عادة بطريقة لاشعورية .

ويظهر لنا مما سبق جناية الآباء على أولادهم عندما يتدخلون في كل كبيرة وصغيرة من أمورهم مما يترتب عليه حرمانهم من التفكير والتدبر لما يعرض لهم من مشاكل . فالترية الناعمة تؤدي إلى النكوص وكذلك الأمر بالنسبة للتربية الحسنة القاسية . وكل ما نطمح إليه هو التربية المعتدلة التي تتميز بقدر كبير من الواقعية .

فإذا ما أردنا أن نعد أولادنا لحياة نفسية سليمة وجب علينا أن نعرف أن الحياة عبارة عن مجموعة من المشاكل تتطلب الحل ؛ وكل مشكلة إنما تغاير السابقة

بعض المغايرة . وعلى هذا النحو تتضمن الحياة معنى الجدة وتلقى على كاهل المرء أن يغير من سلوكه وفقاً لتغير المشاكل وتجديدها . وقد ساعدت الطبيعة الإنسان على ذلك بما زودته به من مرونة في السلوك وبما ركبت فيه من ذكاء يتفاوت بتفاوت الأفراد . ويختلف الناس بعضهم عن بعض في قدرتهم على المرونة وتشكيل سلوكهم كما يختلفون أيضاً في حفظهم من الذكاء ومن هنا تظهر « فردية » كل إنسان . هذه الفردية التي تكون لب الشخصية وجوهرها والتي تجعل إمكانية التطور والرفق حقيقة واقعة . فعلى الآباء أن يتخففوا من سلوكهم المسيطر وألا يبالغوا في حناهم وحنانهم في سبيل صالح أولادهم .

كمال الدين عبد الحميد نايل

منشورات جماعة علم النفس التكاملي المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

يشرف على إصدارها الدكتور يوسف مراد

ظهر مبدئاً :

مدارس علم النفس المعاصرة

ترجمة وتعليق

كمال دسوقي

تأليف

روبرت ودورث

الكتاب في علم النفس الحديث الذي ظهرت له في الإنجليزية خمس عشرة طبعة منذ ظهوره سنة ١٩٣١ . به عرض وتحليل ودراسة لكافة مدارس علم النفس وقد زوده المترجم بمقدمة وافية ، وتعليقات متتابعة على أكثر من مائة عالم ونظرية وبأحدث المراجع في الإنجليزية والفرنسية التي ظهرت في لندن وباريس حتى وقت ظهوره . كتاب لا غنى عنه للقارئ العربي .

الثنى ٥٠

٣٦٨ صفحة من القطع الكبير

مترجم وطبع ومصحح
دار المعارف بمصر